

لماذا تأخر المسلمون...؟

عند ما يستعرض للكتاب الآراء التي كتبها الباحثون عن تأخر المسلمين وأن يلم باستنتاجاتهم في البواعث والعوامل التي أدت إلى ضعفهم وانحطاطهم يجد أن هذه الآراء والاستنتاجات تنقسم إلى قسمين متضادين متصادمين أحدهما وهو صادر من علماء مسلمين يعزو سبب تأخر الاسلام والمسلمين إلى انصرافهم عن دينهم وتركهم فروضه وتشريعاته وأخذهم بالقوانين الوضعية واسلام قيادهم لرجال من غير الأمة العربية لم يتغلغل الاسلام في قلوبهم ولم تتأثر به عقولهم ، أما الرأي الآخر وهو صادر من بعض المستشرقين فيعزو سبب تأخر المسلمين إلى طبيعة دينهم وتعاليمه ومبادئه التي إذا كانت تصلح لعصره الأول فليست بصالحة على كل حال لتطور الانسانية ولعوامل الوعي والطبيعة التقدم في طور من الحياة بعد طور آخر .

وتقتضينا النزاهة ، وحب الحق ، والحرص على الاسلوب العلمي في هذا البحث الخطير أن نلجس الأسس التي قام عليها كلا الرأيين والدوافع والشواهد التي أوحى لها بتلك الاستنتاجات .

وأغلب الظن أن علماء الاسلام بنوا آراءهم هذه على أن الاسلام وهو الذي خلق من أمة بجاهلة متنافرة غير آخذة بأى سبب من أسباب الحضارة أمة قوية كونت امبراطورية ضخمة لم يعرف العالم لها مثيلاً وذلك في أقل من قرن ونصف قرن من الزمان ، هذا الاسلام الذي جعل من بنييه قادة للامم والشعوب ، والذي أمسك بيده مشعل الحضارة أجيالاً عدة ليس هو السبب فيما أصاب المسلمين من ضعف وتأخر وانحطاط ورجعية وتواكل وجود عن سير موكب الحضارة وإنما الاسلام في جوهره وصفاته برىء كل البراءة فيما أصابه من انتكاس أتى على أيدي أبنائه ممن نبذوه جانباً فحقت عليهم الآية الكريمة وهي قوله عز وجل (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)

أو أتى على أيدي قاداته ممن أسلموا زمامهم لأيد أجنبية لم تتأثر في قابل أو كثير
بروح الاسلام الحققة وتعاليمه الصحيحة وذلك في آخر العصر العباسي الأول
وهو بدء الانحلال السافر الظاهر للعيان وعلى رأس هؤلاء العلماء
الاستاذ الامام محمد عبده .

وكما رسمنا لأنفسنا منهجنا في الدراسة في موضوعات هذا الكتاب وهو
عرضنا أمام القارئ الصور والمقدمات والنتائج التي تتصل بما نعالجه من
موضوعات من طرف ثم ما يضاد ذلك كله من الطرف الآخر محتفظين برأينا
ندلى به في حينه بعد هذا العرض والسرر فانتنا نحب أن نصطنع هنا هذا
الأسلوب فيما يتصل بهذا الموضوع الشائك الدقيق لنخرج برأى مقارب لمنطق
الحوادث ومنطق الأشياء ولطبيعة الحياة لأن غايتنا في هذا البحث العثور على
الحقيقة ومعرفة الصواب دون نظر الى أن تكون النتيجة متفقة مع إرضاء
شعورنا الديني أو مضادة لإرضاء ذلك الشعور .

وهنا نحن أولاء ننقل بعض فقرات من كتاب : الاسلام والنصرانية ،
للاستاذ الامام الشيخ محمد عبده تصور ما يذهب إليه علماء الاسلام
ومفكروه في هذا الشأن .

قال الأستاذ الامام :

كان الاسلام ديننا عربيا ، ثم لحقه العلم فصار علما عربيا بعد أن كان
يونانيا ثم أخطأ خليفة في السياسة فاتخذ من سعة الاسلام سييلا إلى ما كان يظنه
خير آله ، ظن أن الجيش العربي قد يكون عوناً لخليفة علوى لأن العلويين
كانوا ألصق ببيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأراد أن يتخذ له جيشا أجنبيا
من الترك والديلم وغيرهم من الأمم التي ظن أنه يستعبد لها بسلطانه ويصطنعها
ياحسناته فلا تساعد الخارج عليه ولا تعين طالب مكانه من الملك ، وفي
سعة أحكام الاسلام وسهولته ما يبيح له ذلك ، هنا لك استعجم الاسلام
وانقلب عجميا

« خائفة عباس أراد أن يصنع لنفسه وخلفه ، وبئس ما صنع بأمرته ودينه أكثر من ذلك الجند الأجنبي وأقام عليه الرؤساء منه فلم تسكن إلا عشية أو ضحاها حتى تغلب رؤساء الجند على الخلفاء واستبدوا بالسلطان دونهم ، وصارت الدولة في قبضتهم ، ولم يكن لهم ذلك العقل الذي راضه الاسلام ، والقلب الذي هذبه الدين ، بل جاءوا إلى الاسلام بخشونة الجهل يحملون ألوية الظلم . لبسوا الاسلام على أبدانهم ، ولم ينقذ منه شيء إلى وجدانهم ، وكثير منهم كان يحمل آلهه معه يعبدونه في خلوتهم ، ويصلي مع الجماعات لتمسكين سلطته ، ثم عدا على الاسلام آخرون كالتتار وغيرهم ومنهم من تولى أمره ، أى عدوا لهؤلاء أشد من العلم الذى يعرف الناس منزلتهم ، ويكشف لهم قبح سيرهم ! فقالوا على العلم وصديقته الاسلام ميلتهم ، أما العلم فام يحفلوا بأهله ، وقبضوا عنه يد المعرنة ، وحملوا كثيرا من أعوانهم أن ينتظموا فى سلك العلماء ، وأن يتسربلوا بسرابيله ايعبدوا من قبيله ، ثم يضعوا للعامة فى الدين ما يبخس إليهم العلم ويبعد بنفوسهم عن طلبه ، ودخلوا عليهم وهم أغرار من باب التقوى وحماية الدين ، زعموا الذين ناقضا ليسكملوه ، أو مريضنا ايعملوه ، أو متداعيا ليدعموه ، أو يكاد أن ينقضى ليقمروه .

« نظروا إلى ما كانوا عليه من نفخة الوثنية . وفى عادات من كان حولهم من الأمم النصرانية ، فاستعاروا من ذلك للاسلام ما هو براء منه ، لسكنهم نجحوا فى اقناع العامة بأن فى ذلك تعظيم شعائره ، وتفخيم أوامره ، والغوغاء عين القائم ، وهم يد الظالم ، فخلقوا لنا هذه الاحتفالات ، وتلك الاجتماعات وسنوا لنا من عبادة الأولياء والعلماء والمتشبهين بهم ما فرق الجماعة ، وأركس الناس فى الضلالة ، وقرروا أن المتأخر ليس له أن يقول بغير ما يقول المتقدم وجعلوا ذلك عقيدة حتى يقف النسكر وتجدد العقول . ثم بشوا أعوانهم فى أطراف الممالك الاسلامية ينشرون من القصص والاكسير والآرام ما يقنع العامة بأنه لا نظر لهم فى الشؤون العامة ، وأن كل ما هو من أمور الجماعة

والدولة فهو مما فرض فيه النظر على الحكام دون من عداهم ، ومن دخل في شيء من ذلك من غيرهم فهو متعرض لما لا يعنيه ، وأن ما يظهر من فساد الأعمال ، واختلال الأحوال ، ليس من صنع الحكام ، وإنما هو تحقيق لما ورد في الأخبار من أحوال آخر الزمان ، وأنه لا حيلة في إصلاح حال ولا مآل ، وأن الأسلم تفويض ذلك إلى الله ، وما على المسلم إلا أن يقتصر على خاصة نفسه ، ووجدوا في ظواهر الألفاظ لبعض الأحاديث ما يعينهم على ذلك ، وفي الموضوعات ، والضعاف ما شد أزهرهم في بث هذه الأوهام ، وقد انتشر بين المسلمين جيش من هؤلاء المصلين ، وتعاون ولادة الشر على مساعدتهم في جميع الأطراف ، واتخذوا من عقيدة القدر ميثاقاً للعزائم ، وغلا الأيدي عن العمل ، والعامل الأقوى في حمل النفوس على هذه الخرافات إنما هو السذاجة وضعف البصيرة في الدين وموافقة الهوى ، أمور إذا اجتمعت أهلكت ، فاستتر الحق تحت ظلام الباطل ، ورسخ في نفوس الناس من العقائد ما يضارب أصول دينهم ويأينها على خط مستقيم .

هذه السياسة ، سياسة الظلم وأهل الأثرة ، هي التي روجت ما أدخل على الدين مما لا يعرفه ، وسلبت من المسلم أملاً كان يخرق به أطباق السموات وأخسدت به إلى يأس يحاور به العجاوات ، فكل ما تراه الآن مما تسميه إسلاماً فهو ليس بإسلام ، وإنما حفظ من أعمال الإسلام صورة الصلاة والصوم والحج ومن الأقوال قليلاً منها حرفت عن معانيها ، ووصل الناس بما عرض على دينهم من البدع والخرافات إلى الجود الذي ذكرته وعدوه ديناً ، نعوذ بالله منهم وبما يفترون على الله ودينه فكل ما يعاب الآن على المسلمين ليس من الإسلام ، وإنما هو شيء آخر سموه إسلاماً ، انتهى .

ويرى الدكتور هيكل باشا في كتابه الفاروق عمر الجزء الثاني .

وأن العوامل التي كان لها أثر في قيام الحضارة الإسلامية ، وفي عظمة الأباطورية في القرون الأولى قد كان لها كذلك عظيم الأثر حين بدأت عوامل الانحلال تدب في كيان الأباطورية ،

وهو يعنى بهذه العوامل أن رقعة الفتح الاسلامى حينها اتسعت وشملت
الفرس والروم لم يعرض أهل هذه البلاد التى لها قدمة والى لها سابقة فى الحضارة
والرقى بأن يحتضنوا العرب ويظهروهم على ما لهم من تجارب ونظم ، وما كونه
من تراث فى الفن والفلسفة والآداب ، تأثرت بها الحضارة الاسلامية ، وقامت
على دعائمها الامبراطورية العربية .

ثم يتابع هيكل باشا كلامه فيقول « كيف يؤدي تفاعل عوامل بذاتها الى
آثار متناقضة فيكون سببا فى قيام الامبراطورية وعظمتها ، ثم يكون سببا فى
تدهورها وانحلالها ؟ ؟

الجواب عن هذا السؤال يصدق على الامبراطورية الاسلامية ، وعلى
غيرها من الامبراطوريات ، فكم هذه العوامل ، ومبلغ تفاعلها ، يختلفان فى
زمن عنهما فى زمن آخر ، وهذا الاختلاف يؤدي الى تبين النتائج ذلك أمر
طبيعى نشهده فى الظواهر الاجتماعية كما نشهده فى الظواهر الطبيعية ، فكما
يؤدي اختلاف الأنواع والمقادير فى العناصر الكيميائية إلى اختلاف تفاعلها
وما يترتب على هذا التفاعل من نتائج ، كذلك يؤدي اختلاف الكم والنوع فى
فى العناصر الاجتماعية إلى مثل هذه النتيجة ، فإذا زادت القوى المعنوية فى
الجماعة سواء أكانت هذه القوى روحية أم خلقية أم عقلية أدى تفاعلها مع
القوى المادية إلى سمو الجماعة وعظمتها ، ذلك بأن القوى المعنوية هى التى
تدفعنا إلى طلب الكمال الإنسانى وإلى الدأب فى سبيله والجماعة مع ذلك لاغنى
لها عن قواها المادية . ومضاعفة نشاطها . وهذه القوى تزداد نشاطا وإنتاجا
بدافع من القوى المعنوية فإذا ضعفت معنوياتنا ضعف نشاطنا المادى
وتضاءل إنتاجنا ، .

هذه هى آراء بعض المفكرين الاسلاميين فى سبب تأخر المسلمين .
والعوامل التى ساعدت على ذلك .

أما ما يرتكز إليه بعض المستشرقين فى رأيهم المضاد لذلك فيتأخص فى

أن عوامل الانحطاط ودوافع الانحلال . لم تكن طارئة على الاسلام أجنبية عنه دفع إليها رغماً عن إرادته . وقسراً عن طبيعته عما لا حيلة له فيه . بل كانت هذه العوامل والبواعث التي أدت إلى ضعف المسلمين وتأخرهم هي من تعاليم الاسلام ذاته . وإلا فكيف يتفق أن ينتظم هذا التأخر المسلمين جميعاً في كافة المعمورة ويستنتج هؤلاء أسانيد لهم من أن الاسلام أعطى ولي الأمر مقاليد المسلمين وجعل كافة شئونهم وأمورهم ملك يديه فشل بذلك حرية التفكير في الفرد . وأعدم فيه رغبة النهوض والطموح الا فيما يرضى ولي الأمر ويتفق مع عقليته وأهدافه . حتى أن اسم الدين نفسه فيه معنى الاستسلام والانقياد وعلى رأس هؤلاء المستشرق « أجناس جولدر سير » .

ويرى آخرون أن السبب في تأخر المسلمين وانحلالهم يرجع إلى ما في تعاليم دينهم من إيمان بالجهرية التي فيها دعوة صريحة إلى التواكل والخلود وعدم السعي في الحياة وعلى رأس هؤلاء الكاتب الأمريكي « واشنجتون ايرفنج » الذي يقول ما ترجمه .

(لقد ألهم محمد مذهب الجهرية من وحي الساعة فكان إلهاماً مجزأاً لحدوته في أنسب أوقاته . فقد حدث توأماً بعد غزوة أحد المنكودة التي ذهبت بأرواح عدد غير قليل من أنصاره . ومن بينهم عمه حمزة . . عندئذ وفي ساعة وجوم وهاع تخطعت أثناءها قلوب أصحابه المحيطين به أصدر هذا القانون بينهم أن لا مفر لإنسان من أن يتوفى في ساعة أجله . في فراشه كان أو في ساحة الوغى .

أبنة عقيدة يمكن أن يصورها صاحبها أدق من هذا التصوير ليدفع بها للغزو طائفة من الجنود الجاهلاء الأغرار دفعاً وحشياً . إذ يقنعهم عن يقين بالفناء لمن يبق والجنة لمن يموت . ولقد جمعت هذه العقيدة جند المسلمين لا يكاد يغلبه غالب . لكنها احتوت كذلك السم الذي يقضى على سلطانه فندد اللحظة التي كلف فيها خلفاء النبي عن أن يكونوا غزاة فاتحين . ومنذ أخذوا

سيوفهم بصفة نهائية بدأت العقيدة الجبرية تعمل عملها الهدام فقد أزهق السلم أعصاب المسلمين كما أزهقها المتعاقب المادى الذى أباحه القرآن . والذى يفصل فصلا حاسما بين مبادئه ودين المسيح . دين الطهر والإيثار . فصار المسلم ينظر إلى ما يصيبه من بأساء على أنها بعض ما قدر الله عليه . وما يجب الإذعان له واحتماله ما دام كل جهد . وكل حكمة إنسانية عبثا لانفع له . ولم تكن قاعدة (أعن نفسك يعنك الله) مما يرى أتباع محمد تنفيذه . بل كان عكسها نصيبهم) .

هذان هما الرأيان اللذان تعرضا للبحث فى هذه المسألة الدقيقة غاية الدقة العميقة كأقصى ما يتصور العمق ورأينا أن كلا الرأيين غير صحيح . وإن كان رأى الأول يقرب من الحقيقة ويلبسها بعض الشيء . وإليك الدليل :

أن دعوة الاسلام كأي دعوة أخرى عالمية ناجحة لا بد أن تعتمد فى مبادئها ونظمها وقوانينها على أركان ثلاث الركن الخلقى والركن الاجتماعى والركن الاقتصادى . وأن يكون تشريعها بما فيه من واجبات وسدود مستمداً عناصر وجوده ومواد قوانينه من هذه الأركان الثلاث .

والاسلام بطبيعته كدين من الأديان يستند على دعائمه الأولى وهى الدعامة الروحانية إلا أنه لم يغفل البتة هذه الدعائم الثلاث بل إن التقارب وطبيعة الدعوة الإسلامية آلفت بينها جميعا فتأثرت الأركان الثلاث وهى الركن الخلقى والركن الاجتماعى والركن الاقتصادى بالدعامة الأولى للاسلام وهى صفة الروحانية وبالتالي أثرت فيها فأظهرتها للناس بمظهر جديد لم يلبسوه فيما عرفوه من ديانات . وما آمنوا به من عبادات سابقة للاسلام وهى يراجع ما كتبناه فى فصل (مسكنة الاسلام بين الديانات) يتبين له أن هذا الدين كان بمثابة ثورة فكرية على ما تواضع عليه الناس من قبل فى فهم العقيدة الأخلاقية وما كونه لأنفسهم من آراء عن طبيعة الدين ورسالته . وهى الآثار المترتبة عليه فى حالتى الايمان أو الالحاد .

فالإسلام ولو أنه ينتظم مع هذه الديانات في الإيمان بوجود الله وفي إحياء المبادئ الروحية ، وفي الترغيب والترهيب والجزاء والعقاب إلا أنه يختلف عنها جميعاً في وسائله وغاياته السكاملة ونظرته للناس وللحياة .

ومن هنا ندرك السر فيها استنتاجناه غير مرة في هذا الكتاب وهو الصلة بين الديانات وبين ما بلغه الإنسان من تطور وإدراك .

لقد قلنا إن الديانات عند ما كانت تنزل على بني البشر كانت تقتضيها ضرورة ملحة ، وكانت تستوجبها أزمات عميقة تتطلب حلاً وعلاجاً . وهي من أجل ذلك لم تسكن ترتفع عن مستوى البشرية ، أو تتصادم وتتعارض مع قوة وعيها وإدراكها . وإنما كانت متفقة معها فيما بلغت من تطور ، كاشفة لها عن آفاق جديدة لتكليف بها حياتها ولتهدى لنفسها ما تبغيه من استقرار وطمأنينة .

والمدارس لكل الديانات السماوية العالمية يجد أن ذاتياتها وصفاتها تؤرخ حالات مختلفة ، وتسجل صوراً متباينة من تاريخ التطور البشري فالصبغة التي كانت عليها الديانة اليهودية ، والغايات التي جاءت لتحقيقها تختلف في مجموعها عما كانت عليه المسيحية ، وما تبغى الوصول إليه من غايات . كما تختلف الديانتان الأخريان عن الصبغة التي اصطبغ بها الإسلام . وما كان ينشد تحقيقه من مبادئ ونظم ويسعى إليه من أهداف . لذلك لا يمكن أن يتفق أن تشغل أحد هذه الديانات الثلاث مكان الأخرى لأن ذلك يتنافى ومنطق الطبيعة . وسنة التطور في الكائنات .

وعلى ضوء هذا الاستطراد سنسهب بعض الشيء في شرح وبيان الأسس التي قام عليها الإسلام لنرى إلى أي حد كيف أدى انهيار بعض هذه الأسس إلى توالد الميكروبات والأمراض التي أخذت تعمل عملها في القضاء على ما في جسم الإسلام من قوة وصحة وحيوية حتى تركته أخيراً في مرحلة التآخر والانحلال .

قلنا إن الاسلام في صميم دعوته قام ليحقق للبشرية مبادئ ثلاثية تتمثل فيما وضعه من قواعد الأخلاق والاجتماع والاقتصاد . ودلنا على أن رسالته الروحية كانت تغذى هذه القواعد الثلاث ، وكانت دائمة دائماً على غرسها في النفوس . فالعبادات التي شرعها الله للمسلمين هي بذاتها إحصاءات قوية لتثبيت هذه القواعد في القلوب وتماسكها بالوجدان ، لأن هذه العبادات جميعها ليست إلا مظاهر من مظاهر الاسلام ، وليست إلا وسائل يحقق بها غاياته .

والركن الخاسق ظاهر وواضح في الدعوة الاسلامية : فالقرآن يقول : (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) ويقول أيضاً : (وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل) ويقول : (ولا تمس في الأرض مرحاً إنك إن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً) ويقول : (ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتي هي أحسن ، فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم) ويقول : (واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ، وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً) . ويقول : (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهل) ويقول : (واصفح الصفح الجميل) ثم لم يجد صفة أروع ولا أعظم يمدح بها نبيه غير أن يقول : (وإنك لعلی خاق عظیم) .

والنبي عليه السلام يقول : (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه) ويقول أيضاً : (مثل المؤمنین فی توادهم وتراحمهم كمثل الجسد .. إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء باخى والسهر) . ويروى أنه عليه السلام ودو في مرض الوفاة خطب المسلمين فقال : (أيها الناس : من كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهري فليستقدمني ، ومن كنت شتمت له عرضاً فهذا عرضي فليستقدمني ومن أخذت له مالا فهذا مالي فليأخذ منه ولا يخش الشجناء فهي ليست من شأني)

فالإيثار ، والهراحة ، والصدق ، والاعتدال في كل شيء ، والضمير النقي ، والقلب النظيف ، والأمانة التامة ، والبعد عن الموبقات والفساد وكل أنواع الشرور الظاهرة والخفية .. كل ذلك من الصفات البارزة التي رسمها القساؤون الحاق في الاسلام . والتي جعلها تتحقق في النفس الانسانية بتأديتها من تعاليم وعبادات . فإذا لم تتحقق هذه الصفات في شعار لدولة وكافة شؤون

وفي سياسة الأمة ونفوس حكامها ورعاياها ، كان في ذلك هدم وقضاء على أهم ركن من أركان الاسلام وهو الركن الخلقى .

والركن الثانى الذى اعتمدت عليه الدعوة الاسلامية هو الركن الاجتماعى ويتبين فيما أمر به القرآن ودعا اليه النبي من المساواة المطلقة بين الناس جميعاً ، وفي قضائه على ما تواضع عليه الناس من النظام الطبقي في قوة وعنف ، وفي استئصاله كل ما اصططنه العالم من وسائل التمييز بين الأجناس ورفع بعضهم درجات فوق بعض لا لعبقريته ولا لعمل مفيد صالح للمجتمع وللإنسان ، وإنما لوشيجة العنصر ، وطبيعة الدم . فأنكر الاسلام كل ذلك في غير هولادة فالناس أمام القانون سواء في الحقوق والواجبات والحدود ، وفي شعور بعضهم نحو بعضهم . فآله يقول في كتابه الكريم : (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا . إن أكرمكم عند الله أتقاكم) أى أصابحكم وأنفعكم أنفسه ولقومه ولأمته . وقيل إن السبب في نزول هذه الآية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بنى بياضة أن يزوجوا أبا هند امرأة منهم - وهو مولى لهم فقالوا يا رسول الله : نزوج بناتنا من موالينا 116 فنزلت هذه الآية الكريمة . وفي حجة الوداع يخطب رسول الله المسلمين فيقول (أيها الناس : إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد كلكم من آدم ، وآدم من تراب ، ليس لعربي على عجمي فضل الا بالتقوى) .

وحينما سرقت فاطمة الخزومية - وكانت من طبقة رقيقة من العرب - جاء أناس يستشفعون لها حتى لا يقيم الرسول الحد عليها . فغضب عليه السلام غضباً شديداً ثم قال : (إنما أهلك من كان قبلكم أنهم إذا سرق الشريف تركوه ، وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد . وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت محمد يدها) . . .

بقى الركن الأخير وهو الركن الاقتصادى . . . وهو ما شرعه من الزكاة ، وجعل لها قوة الحق المعلوم الذى لا سبيل الى التغاضي عن أدائه طوعاً أو كرهاً . ثم ما سنه من التضامن الاجتماعى ومن مسؤولية الدولة نحو الفرد :

فبيد مال المسلمين هو الخزينة العامة للدولة التي أنشئت لتراعى مصالح المسلمين ، فتتولى شئون المعدمين الذين لا مورد ولا عائل لهم ، والذين تقعد بهم الظروف أو تقعد بهم حالتهم الجسدية عن العمل والكسب . وهو نوع مما سماه العلماء الاجتماعيون حديثا : التأمين الاجتماعي ضد البطالة وضد العجز والشيخوخة .

وولى الأمر باعتباره راعيا ، وكل راع مسئول عن رعيته ، فى عنقه تحقيق مصالح الأمة وتوطيد كيانها ، وتجديد حيويتها وشبابها . فالاسلام باعتباره دين ودولة احتفل كل الاحتفال بالناحية الاقتصادية ، وكانت له نظراته الخطيرة فى علاقات الناس المادية بعضهم مع بعض . فهو لم يحرم المملكية المطلقة التى تأتى ثمرة لمجهود شخصى بحت دون استغلال ظروف خاصة ، ودون استغلال للغير بلا مقابل وبوسائل الإكراه والضغط . . وإنما أقرها بشرط أن تنفق مع ما رسمه ودعا اليه من قوانين أخلاقية واجتماعية . . ذلك أن الظاهرة الواضحة فى الاسلام أن أركانه وأساسه التى قام عليها متصل بعضها ببعض اتصالا وثيقا بحيث لو تلاشى أحد هذه الأركان أو الأساس كان فى ذلك القضاء كل القضاء على روح الاسلام ولبه وجوهه .

لم يحرم الاسلام المملكية التى تأتى عن طريق هذه الوسائل الشريفة لأنه فى تكوين عناصره ومبادئ دعوته كان يؤمن بالفرد . وكان يعترف بما له من قوة وحيوية وإرادة . ثم إنه بعد ذلك كله أتى حافزا لعوامل اليقظة والنشاط ، باعنا الحيوية والقوة والأمل فى نفس الانسان لاستغلال خيرات الأرض والانتفاع بطواهر الطبيعة . ولكنه مع ذلك أوجب الضريبة التى تتمثل فى الزكاة . وهذه الزكاة كانت فى العهد النبوى الأول صدقة يترك أمرها لضمير الغنى وعاطفته نحو الفقير والمسكين . ويمكن بعد أن كثر المسلمون وانتشر الاسلام فى الجزيرة العربية ، رفعت من ذلك الدور وجعل له أعمال يأخذونها من أصحابها . . وذلك لما ركب فى الغريزة البشرية من حب للأثرة والغلبة والامتياز .

ومن هنا ندرك السر في أن الاسلام كان يحرص من وراء ذلك على عدم خلق الطبقات ، وعلى عدم وجود هذه الفروق الفاحشة بين الجماعة الاسلامية فيمن يملك كثيرا وفيمن لا يملك شيئا . وذلك لأنه لم يوجب هذه الزكاة إلا بعد أن أصبح المسلمون كأمة وكجتمتع له كيانه ومظهره واستقلاله . . . وهي المقومات الخاصة لوجود الدولة .

بقي بعد ذلك أن ننظر في أى مرحلة من مراحل التاريخ الاسلامى اعتدى على هذه الأركان الثلاث لتبسط من وراء ذلك الأسباب الحقيقية التى أدت الى تفكك الامبراطورية الاسلامية وانحلالها .

ويقتضينا الأسلوب العلمى فى العرض ، وطبيعة هذا البحث أن نلم لمسألة سيرة بحالة المسلمين وما كان يكتنف حياتهم ويكون فى نفوسهم من عواهل الانفعال بهذا الدين الجديد وذلك بعد موت النبي مباشرة .

فما لا شك فيه ، وما أجمع عليه المؤرخون أن المسلمين ذهلوا لما علموا ب وفاة النبي ، وأنه اعتزلتهم حالة من الفزع الشديد والحيرة البالغة ، لأنهم وإن كانوا قد أحسوا أن النبي قد أدى رسالته ، وأن الله قد أكمل لهم دينهم بعد نزول هذه الآية الكريمة : (اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الاسلام ديناً) . إلا أنهم لم يكونوا يظنون أن النبي سيتركهم فى هذه الفترة الخطيرة من حياتهم ، وقبل أن يبين له خليفة من بعده يأخذ بيدهم ، ويكون لهم سنداً من هذه الأعاصير التى كانت تنذبذب لهم فى الداخل وتحيط بهم من الخارج . .

وإن نستطيع أن نتصور مقدار الحالة التى كان عليها المسلمون بعد عامهم بهذا النبأ الفاجع دون أن ندرك ما حدث لعمر بن الخطاب من اضطراب وذهول وثورة نفسية . . فلقد وقف عمر فى المسجد يخطب المسلمين ، ويندد بهم يقول إن النبي قد مات ، ويتوعددهم بعقاب شديد . والمسلمون بعضهم يستمع له وبعضهم يعرض عنه ، إلى أن جاء أبو بكر الصديق - هذا الشيخ المحلى السمح الرزين - فوجد المسلمين فى المسجد فى صخبهم وضوضائهم وفرعهم الأكبر . .

فضعد المنبر ، ثم خطب الناس في ثبات وهدوء بقوله : « أيها الناس ، من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات . ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت . ثم تلا قوله تعالى : (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل . أفإيا مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ۚ ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين) . »

سمع عمر هذه الآية ولم يكن واعياً لها ، فخر إلى الأرض مغشياً عليه لأنه آمن بموت النبي حقيقة . ولكنه لم يستسلم للجزع ، وإنما تحمل المصائب الفادحة بما عرف عنه من صبر وقوة وإيمان .

وهذا اضطراب المسلمين بعض الشيء ، وأخذوا يفكرون في مصيرهم بعد أن رفع النبي إلى الرفيق الأعلى . فاجتمع الانصار في سقيفة بني ساعدة ابتدأوا في الأمر في أحقيتهم بالخلافة بعد رسول الله لأنهم هم الذين آووا النبي ونصروه وأعزوه بعد أن كرهه قومه وطاردوه وحملوه على الهجرة فراراً من اعتدائهم وظلامهم وتعسفهم . وعلم عمر بذلك ، فأرسل إلى أبي بكر يستدعيه وهو يجوز النبي ليسجد مضجعه الأخير . ولم يقبل أبو بكر أن يترك جهاز النبي لغيره من أهله إلا بعد إلحاح من عمر شديد ، لأن عمر كان يخشى أن تندلع نار الفتنة بين المسلمين ، وكان يفرع من أن يتطرق إلى وحدتهم أي عامل من عوامل التفرق والاضطدام .

واضطرب عمر وأبو بكر معها أبا عبيدة بن الجراح حيث ذهبوا جميعاً إلى اجتماع الانصار في سقيفة بني ساعدة . وأدلى الانصار بحججهم في أنهم أولى بالخلافة لإعزازهم النبي ونصرهم له ، واحتضانهم الاسلام بعد أن طارده المشركون وتمكرت له الأغلبية الساحقة من قريش ورد عليهم أبو بكر بهذا الخطاب الذي يتمثل فيه النبل والخلق الكريم والحرص مع ذلك على العدل والتمسك بالحق . قال : « أيها الانصار . نحن المهاجرون أول الناس اسلاماً ، وأكرمهم أحساباً ، وأوسطهم داراً ، وأحسنهم وجوهاً ، وأكثرهم ولادة في العرب ، وأمسهم رحماً رسول الله . أسلمنا قبلكم ، وقدمنا في القرآن عليكم ،

فقال تبارك وتعالى : (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان) فتنحن المهاجرون وأنتم الأنصار إخواننا في الدين وشركاؤنا في الفداء ، وأنصارنا على العدو . أما ما ذكرتم فيكم من خير فأنتم له أهل ، وأنتم أجدر بالشأن من أهل الأرض جميعا . فأما العرب فلن تعرف هذا الأمر إلا لهذا الحى من قريش . ففنا الأمراء ومنكم الوزراء ، ثم قدم اليهم أبا عبيدة بن الجراح وعمر بن الخطاب ليبايعوا أيها شاهوا . فلم يكن من عمر إلا أن طالب من أبي بكر أن يبسط يده لبيبايعه وهو يقول : د ألم يأمرك النبي بأن تصلى أنت يا أبا بكر بالمسلمين ؟ فأنت خليفته ونحن نبايعك فنبايع خير من أحب رسول الله منا جميعا . وبايعه أبو عبيدة بن الجراح وهو يقول : ذلك أفضل المهاجرين ، وثاني اثنين إذ هما في الغار ؛ وخليفة رسول الله على الصلاة أفضل دين المسلمين . فمن ذا الذى ينبغي له أن يتقدمك أو يتولى هذا الأمر عليك ؟ ثم تتابع بعد ذلك المهاجرون والأنصار فبايعوا أبا بكر .

إلى هنا أصبح أبو بكر هو والى المسلمين الشرعى . فلننظر الى أى حد تمسك بروح الاسلام وحافظ على تعاليمه ، وماذا كان حظه من الحرص الدقيق على هذه الأركان الثلاث التى قلنا إن دعوة الاسلام قامت عليها . ولن نجد شيئا يدلنا على تمسك أبى بكر بهذه القواعد الأخلاقية التى دعا إليها الاسلام ، والتى تمثل بها رسول الله فى حياته أقوى من هذا الخطاب الذى استهل به أبو بكر ولايته قال : « أيها الناس :

« إني قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينوني ، وإن أسأت فقوموني ، الصدق أمانة ، والكذب خيانة . والضعيف فيكم قوى عندي حتى أرد عليه حقه إن شاء الله ، والقوى فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله . ألا لا يدع قوم الجهاد فى سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل ، ولا تشيع الفاحشة فى قوم إلا عمهم الله بالبلاء . أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم . قوموا الى صلاتكم يرحكم الله ،

أنظر الى هذه الشخصية الجبارة فى غير عنف ، القوية فى اعتدال ، التى

التزمت هذه التبعات ، وتمسكت بقواعد الأخلاق المشالية التي لم ير العالم وان يرى أروع وأنبيل منها . انظر الى تصوير هذه العلاقة بين الوالى ورعيته التي صورها والتزمها الخليفة الأول للمسلمين — هل تجد في سموها وعظمتها شيئا مما اصطنعت الحضارة الحديثة من نظام وما تزعم بلوغه من رقى ؟

أما الركن الاجتماعى وهو المساواة المطلقة فى الحقوق والواجبات — فوجد أبا بكر من أقوى الحريصين عليه ، المتمسكين به لا فيما بين الرعية بعضهم مع بعض فقط ، وإنما فيما بينه وبين الرعية جميعا . انظر الى هذا الرجل خليفة المسلمين وولى أمرهم وهو يشيع جيش أسامة الذاهب الى الشام لمحاربة الروم ، وأسامة راكب فرسه — وهو شاب لما يكسده يبلغ العشرين — وهذا الشيخ السميع يسير بجانبه راجلا **كأى** جندى بسيط من جنود المسلمين .. فيناديه أسامة : يا خليفة رسول الله ! والله أتركبن أو لأنزلن ، فيرد عليه أبو بكر : والله لا تنزل ووالله لا أركب . وما على أن أغبر قدمى فى سبيل الله ساعة . . ثم ماذا بعد ذلك ؟ . . ثم يرجوه — إذا شاء — أن يدع له عمر بن الخطاب ليعينه ويشير عليه فى أمور المسلمين .. فيأذن له أسامة فى ذلك ..

ثم يتجلى تمسكه بهذا الركن الاجتماعى أوضح وأعظم فى مساواته بين الناس جميعا فى أعطياتهم من الفء — لا فضل لأحد على أحد . ولما راجعه بعض الصحابة فى ذلك وراودوه على أن يجعل لمن لهم القدمة والسابقة فى الاسلام الحظ الأوفر من العطاء — قال لهم هذه الكلمة الخالدة : « أما ذكرتم من الفضل والسوابق والقدم فما أعرفنى بذلك ؟ وإنما ذلك شيء ثوابه على الله جل ثناؤه . وهذا معاش ، فالأسوة فيه خير من الأثرة » .

بقى بعد ذلك الركن الاقتصادى . ولستنا فى حاجة لأن نؤكد لك تمسك الصديق به فى غير هواة ولا تساهل ، وبمعناه الذى شرعه الله وعمل به رسوله فلقد حدث بعد موت النبی مباشرة أن تهللت الأفكار وتشعبت الفتن فى أنحاء الجزيرة العربية ، وامتنع قوم عن أسلموا عن أداء الزكاة وإن ظلوا بعد ذلك مسلمين ولم يرتدوا عن دينهم . وجمع أبو بكر الصحابة واستشارهم فى أمرهم

فأشار بعضهم بتركهم ما داموا ينطقون بالشهادتين ويؤمنون بالله ورسوله ،
ويؤدون فروض الاسلام الأخرى . ورأى البعض الآخر أن فروض الاسلام
متماصة بعضها ببعض ، فلو عطل أحدها كان في ذلك هدم لبقية الفروض
الأخرى . ولذلك وجب محاربتهم .

ثم إن هذه الزكاة هي حق بيت المال ، وبيت المال هو المسئول الأول عن
الضعفاء والعجزة والمعدمين ومن لا عائل لهم من فقراء المسلمين . ولذلك رأى
أبا بكر يوافق على رأى الأخير ، ويقف من هذه المسألة موقفاً رائعاً كله
صرامة وشدة فيقول : « والله لو منعوني عقلاً كانوا يؤدونه الى رسول الله
لقاتلهم عليه » . ولما راجعه عمر بن الخطاب بقوله : « كيف نقاتل الناس وقد
قال رسول الله : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله ، وأن
محمداً رسول الله . فمن قالها عصم مني ماله ودمه إلا بحقها » وحسابه على الله) ؟
رد عليه بقوله : « والله لأفانن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق
المال ، وقد قال : إلا بحقها »

أرأيت إذاً كيف تمسك أبو بكر بهذا الركن حتى أعلن الحرب من أجله وجعلها
مشروعة كمشروعة حرب المرتدين والمشركين . ذلك أنه رأى أن التهاون في
تعطيل ركن من أركان الاسلام - فضلاً عن أن فيه زعزعة من قوة العقيدة في
النفوس - فإن فيه إهداراً وضياًعاً لحق من حقوق الفقراء والمعدمين والمحرومين
من فقراء المسلمين ، بما حدا به عمر أخيراً أن يتجهس لمحاربة مانعي الزكاة ، وأن
يقول « والله ما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه
الحق » . ١ .

هكذا كان تمسك الخليفة الأول بهذه الأركان الثلاث كما رأيت ، فانهظر ماذا
كان حظ الخليفة الثاني عمر بن الخطاب من ذلك وبقيننا الذي لا يتطرق
إليه الشك أن السمات التي انصف بها الاسلام ، والذاتيات التي ميزته عن غيره
وظهر بها في وضوح وجلال وقوة : عاملاً في سبيل الحق ، مقدساً العدل المطلق
متسلاً الى أعماق النفس البشرية ، دارساً الدوافع الخفية في ضمير الإنسان غير

غافل عن تكرينه المادى ، وخيائه الواقعية - نعتقد أن هذه الصفات والسمات والذاتيات التى ذكرنا كأنها كانت متبلورة فى نفس عمر ، مستترة وراء عقله الباطن حتى تهيأت لها الظروف ، ووجدت المناسبات فبرزت لتعمل عملها وتنهض بما يجب أن تنهض به من تقديس للحق ، ومن تمسك بالعهد المطلق على أى صورة من الصور ، وبأى وجه من الوجوه .

ونستطيع أن نلمس شيئا من ذلك فى تصرفات عمر وأخلاقه وإيماءاته النفسية التى كان يخالف بها الرسول وغيره من الصحابة ؛ فينزل الوحي مؤيدا رأيه . . كما حدث فى أمر أسرى بدر ، وكما حدث فى أمر نساء النبي حينما طلب منه عليه السلام أن يحتجب فنزل الوحي مؤيدا له فى ذلك أيضا . وكما حدث فى تحريم الخمر ، حينما طلب من الله أن يبين للمسلمين فيها لأنها تذهب العقل والمال فنزل الوحي بالتحريم فى قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه .. الخ الآية) .

وفيما روى من أن النبي بعث * أبا هريرة يبشر بالجنة من شهد أن لا إله إلا الله مستيقنا بها قلبه . فلما سمعه عمر رده إلى رسول الله رداً عنيفا ، وذهب فى أثره يسأل رسول الله أحق قد بعثه يبشر الناس هذه البشرى ؟ فلما أجاب رسول الله أن نعم ، قال عمر : فلا تفعل فإنى أخشى أن يتكل الناس عليها فخلهم يعملون ، فأخذ رسول الله برأيه وقال : فخلهم .

هذه كلها أشياء تدلنا على نفسية عمر ، ومدى إدراكه للحقائق ، وفهمه للأمور ، ونظرته للناس والأشياء والحياة . والشئ الذى نريد أن نخرج به من تلك الإمامة اليسيرة هو أن الخليفة الثانى عمر فى قوة شخصيته وفى نضوج عقله واجتهاد رأيه قد حافظ على هذه الأركان الثلاث محافظة دقيقة بكل ما ترمى إليه هذه الكلمة من معنى . وقد أضفى عليها من روحه ونضوج عقله واجتهاد رأيه ما جعل لها قوة الغريزة فى نفوس المسلمين ، وما جعلها سندا وعمادا

لنشأة هذه الامبراطورية وقوتها وحيويتها وقيادتها للعالم . ذلك أن الظاهرة الواضحة في قيام الامبراطوريات وعظمة الأمم وتصورها لقيادة البشرية هي ما ترسمه لنفسها وتستظهر بها على غيرها من قواعد خلقية واجتماعية واقتصادية تنفق مع الحق وتتمشى مع العدل المطابق .

وعمر بن الخطاب وهو الذي اتسعت في عهده رقعة الفتوح الإسلامية ، وتزعزعت أمام قوات المسلمين بنايات الامبراطوريتين الفارسية والرومانية ، ودخل العرب بلاداً غريبة عنهم ، لأهلها قدمة وسابقة في الحضارة . . . ومع ذلك نجد جميع المؤرخين من مسلمين ومستشرقين يجمعون على أن أهل هذا البلاد التي كانت خاضعة للفرس والروم كانوا يعجبون من أمر هؤلاء البدو الذين لم يأخذوا يحفظ يذكر من الثقافة ، ومع ذلك يتخلقون بأخلاق عالية غاية في السمو والرقى : من حب للعدل ، وتقديس للحق ، وإيمان بالمبدأ ، والتضحية في سبيله والتمسك به . . . ومن أن فتحهم للبلاد وغزوهم للأمم لم يكن لاستغلالها وإنما كان لإصلاحها ، ولم يكن لاستعبادها وإنما كان للشهوض بها خلقياً واجتماعياً واقتصادياً . . . حتى أن البلاذري يروى أن عمر بن الخطاب لما ذهب إلى الشام لإبرام معاهدة الصلح : . . . وعند مقدمه الجابية من أرض دمشق مر بقوم مجذومين من النصارى ، فأمر أن يعطوا من الصدقات ، وأن يجرى عليهم القوت ،

ونظرة فاحصة لنود معاهدة الصلح التي أبرمها مع أهل المقدس في كتابه الذي كتبه لهم - والذي سجله الطبري - ما يكفي في الدلالة على كل ذلك :

(بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان . أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ، ولكنائسهم وصلبانهم ومقبيمها وبريشتها وسائر ملتها أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود . وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن وعليهم أن يخرجوا منها الروم والصيوص

فمن خرج منهم فهو آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن أقام منهم فهو آمن وعليه ما على أهل إيلياء من الجزية . ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلى بينهم وصلبهم فإنهم على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم . ومن كان بها من أهل الأرض فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ، ومن شامسار مع الروم ، ومن شاء رجع إلى أهله . وإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصانهم . وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين . إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية .)

هذه كلها مقدمات لم يكن لنا بد من أن نقدمها لك لتتصور عهد عمر - وهو العهد الذي استقامت فيه المقومات الواضحة ، والأسس الظاهرة لهوض الامبراطورية الإسلامية وتوجيهها للعالم وقيادتها له . ولما كنا نرجع فنذكر لك بشيء من التوضيح ما أقامه عمر من قواعد الخلق والاجتماع والاقتصاد ، لقد خشى بعض المسلمين شدة عمر وغلظته وقسوته - بعد أن أوصى له بالخلافة أبو بكر الصديق - وبعد أن بايعه المسلمون . وكان عمر أحسن في هذه الساعة - بما طبعت عليه نفسه من الرأفة والقسوة معاً ، وبما تبلج به خواطر المسلمين - فصعد المنبر بعد أن فرغ المسلمون من مبايعته ثم خاطبهم بهذا الخطاب الذي يبين لك نفسيته وأخلاقه وقوة شخصيته ومدى صراحته . . قال :

« (بلغني أن الناس هابوا شدتي ، وخافوا غلظتي ، وقالوا : قد كان عمر يشتد علينا ورسول الله بين أظهرنا ، ثم اشتد علينا وأبو بكر والينا دونه فكيف به وقد صار الأمر إليه ؟) ومن قال ذلك فقد صدق .

.. إنني كنت مع رسول الله فسكنت عبيده وخادمه ، وكان من لا يبلغ أحد صفته من اللين والرحمة ، وكان - كما قال الله - « بالمؤمنين رؤفاً رحيماً » ، فسكنت بين يديه سيفاً مسلواً لا حتى يغممني أو يدعني فأمضي . فلم أزل مع رسول

الله حتى توفاه الله وهو عنى راض، والحمد لله على ذلك كثيراً ، وأنا به أسعد .
 . . ثم ولى امر المسلمين أبو بكر ، فكان من لا تشكرون دعتهم وكرمه وليته
 فكنت خادماً وعونه ، أخلط شديقي بالينه ، فأكون سيفاً مساوياً حتى يغمدنى
 أو يدعنى فأمضى . فلم أزل معه كذلك حتى قبضه الله عز وجل وهو عنى راض
 فالحمد لله على ذلك كثيراً وأنا به أسعد .

. . ثم إنى وليت أموركم أيها الناس . فاعلموا أن تلك القسدة قد أضعفت
 ولاسكنها إنما تكون على اهل الظلم والتعدي على المسلمين . فأما اهل السلامة
 والدين والقصد فأنا ألين لهم من بعضهم لبعض ، ولست أدع أحداً يظلم احداً
 أو يتعدى عليه حتى أضع خده على الأرض ، وأضع قدمي على الخد الآخر حتى
 يذعن للحق . وإنى بعد شدي تلك أضع خدي على الأرض لأهل العفاف
 وأهل السكفاف .

. . ولكم على أيها الناس خصال أذكرها لكم فخذوني بها :

. . لكم على أن لا أجتى شيئاً من خراجكم ولا ما أفاء الله عليكم إلا من
 وجهه . ولكم على إذا وقع في يدي ألا يخرج مني إلا في حقه . ولكم على أن
 أزيد أعظيائكم وأرزاقيكم أن شاء الله تعالى ، وأسد ثغوركم . ولكم على أن لا
 ألقىكم في المهالك ، وألا أجركم في ثغوركم ، وإذا غيبتكم في البعوث فأنا أبو
 العيال .

. . فاتقوا الله - عباد الله - وأعينوني على أنفسكم بكنفها عنى ، وأعينوني
 على نفسى بالامر بالمعروف، والنهي عن المنكر، واحضارى النصيحة فيما ولانى
 الله من أمركم . أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

هكذا استهل الفاروق عهده بهذه السياسة التى رسمها لنفسه ؛ وبهذا الدستور
 الذى قدمه للمسلمين . والشئ الذى نحب أن نسجله هنا هو أن نجاح الدعوة
 الإسلامية وقوتها وعظمتها وانتشارها بهذه السرعة الهائلة كان يقضى بوجود
 أبى بكر الصديق على رأس المسلمين فى المرحلة التى تركهم الله فيها وآثر الرفيق

الأعلى - شخصية أبي بكر في تكوينها وفيما طبعت عليه من تمثل لكل أعمال الرسول ، ومن تقاض شديد مسرف في شخصيته عليه السلام ، ومن تحر دقيق في كل ما يقدم عليه من أعمال حتى يكون ذلك متفقا اتفاقا شديداً مع فعل النبي أو قوله ، حتى أنه يقف ومعه القلة من المسلمين في وجوب محاربة مانعي الزكاة ، ويقول كلمته المشهورة : (والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم عليه) . وحتى أنه يتردد بعض التردد لما أشار عليه عمر بجمع القرآن لأنه لم ير الرسول يفعل ذلك . وحتى أنه - والثورات تلعب بذيلها لتهدد الجزيرة العربية - يافذ جيش أسامة إلى الشام ؛ لأن الرسول كان يريد ذلك . !! بالرغم من حاجته الشديدة للمساعدة إلى وجود هذا الجيش بحاجته لتثبيت دعائم الأمن في ربوع الجزيرة العربية . 1. هذه الشخصية بما طبع فيها من كل هذه المميزات والصفات تختلف اختلافاً شديداً عن شخصية عمر - عن قسوته وشدته وصرامته على نفسه وعلى غيره من المسلمين ، وعن استقلاله في الرأي واجتهاده في القول .

ويخيل إلينا أننا لو وضعنا الفاروق مكان الصديق ، أو لو وضعنا الصديق مكان الفاروق لكاننا كمن وضع الشيء في غير محله . وانترتب على ذلك ما يكون من وضع شيء في غير محله من هذه النتيجة الطبيعية من التقلقل والتصدع الذي يؤدي حتماً إلى الانهيار .

فالظروف الأولى في طبيعتها وتكييفها للحوادث التي نشأت عن وفاة النبي كانت توجب للقيادة شخصية كشخصية أبي بكر في رفقهما ولبنهما وحافظتهما محافظة حرفية دقيقة على روح الإسلام ، وعلى ما كان يأخذ به رسول الله المسلمين في أمور دينهم ودنياهم .

أما الظروف في المرحلة الثانية - وهي التي انبثقت فيها رقعة الفتح الإسلامي وورث العرب الامبراطورية الفارسية والرومانية ، ووجدوا امامهم حياة تختلف عن حياتهم البدوية ، بل وجدوا أنفسهم فجأة وعلى حين غرة وقد تهيأت

لهم الظروف ، وأصبحت ملك أيديهم الوسائل ليحيوا الحياة التي كان يحياها عاهلا الفرس والروم ؛ وما فيها من إغراق في الترف ، ومن اندفاع شديد مسرف نحو الشهوة ، ومن فتنة لهم عن دينهم وما فيه من مثل عليا خلقية واجتماعية واقتصادية كلفوا بالحرص على تحقيقها في أنفسهم وفي نفوس غيرهم من الناس . أقول إن هذه الظروف كانت تقضى وتحتّم بأن يكون على رأس المسلمين شخصية كشخصية عمر في عدله المطلق ، وفي قسوته الشديدة في سبيل الحق ، وفي مرونته واجتهاده فيما يعن له وللمسلمين من أمور ، وفي إلمامه بكل صغيرة وكبيرة من شؤون رعاياه حتى ما يكون من أخص خصائصهم ، وفي رقبته الشديدة على عماله في كافة الأمصار ومحاسبتهم حسابا عسيرا وعدم التساهل معهم في شيء . . .

وتقريرنا لهذا المبدأ ليس اعتباطاً منا ؛ وإنما هو شيء ضروري لنجاح أى دعوة أو إخفاقها . فطبيعة الدعوة واستعداد الشخص القائم بها أو القائم عليها من أقوى العوامل في تقرير مصير هذه الدعوة من القوة أو الضعف ، ومن الإخفاق أو النجاح .

هذه هي القواعد الخلقية ، ومدى تمسك عمر بها كما صور ذلك في خطبته ، ثم فيما ذكرناه لك في هذه الأشياء التي جاءت في ثنايا الحديث عنه .

أما نظراته الاجتماعية - وهي التي خالف بها الصديق من عدم المساواة المطلقة في الأعطية - فلا يمكن أن نحملها على أن عمر كان يقر نظام الطبقات ، ولا يمكن أن نستدل من ذلك على عدم إيمانه بالمساواة المطلقة التي دعا إليها الاسلام وعمل بها رسول الله في حياته ، وحافظ عليها خليفته الأول من بعده .

إننا نستطيع أن نستدل على نظرة عمر إلى هذه المسألة من رده على ابنه عبد الله لمساأله واستفسر منه - كيف يفرض لأسامة بن زيد خمسة آلاف من العطاء ويفرض له ألفين ، وقد شهد من الغزوات ما لم يشهد أسامة ؟ قال عمر لابنه : (إن أسامة كان أحب إلى رسول الله منك ؛ وأبوه أحب إلى رسول الله من أيك) . . .

إذا فنظرة عمر الى هذه المسألة لم تكن إلا في هذه الحدود الضيقة الموقوفة
وهي القرب من الرسول أو البعد عنه . ولم تكن تشريعاً عاماً يعمل به ويستند
اليه ، وإنما كانت كما ارتأى هو في العطاء : (لا أجعل من قاتل رسول الله صلى
الله عليه وسلم كمن قاتل معه) .

فأخلاق عمر وطباعه النفسية وتصوره للناس وللحقائق والحياة تتنافى مع
ميله لوجود الطبقات . وتنهض دليلاً قوياً على إيمانه بالمساواة المطلقة التي
لا يحدها حد ولا يقيدتها قيد .

ونظرة يسيرة الى ما كان يأخذ به نفسه ، ويعالج به شئون المسلمين . . تبين
لك ما اضطبخت به نفسه من حب للمساواة في الحقوق والواجبات وفي كافة
الشئون الأخرى . فليس موقفه من عمرو بن العاص حينما اشتكى اليه قهطى من
مصر اعتداء ابن عمرو على ابنه بغريب على من قرأ المبادئ المبسطة في التاريخ
الإسلامى .

ثم موقفه من جيلة بن الأيهم حينما كان يحج . وبينما هو يطوف بالبيت
وطيء إزاره رجل من بنى فزارة فأنحنى ، فرفع جيلة يده فشم أنف الفزارى .
فاشتكاه الى عمر . فدعا عمر جيلة وسأله ، فاعترف بما حدث . فقال عمر لجيلة
(قد أقررت فأما أن ترضى الرجل ولما أن أقيده منك) . وأنكر جيلة ما
سمع وقال (وكيف ذلك وهو سوقة وأنا ملك) قال عمر (إن الاسلام
جمعك وإياه ، فليست تفضله بشيء إلا بالتقوى والعافية) قال جيلة (قد ظننت
يا أمير المؤمنين أن أكون في الاسلام أعز منى في الجاهلية) قال عمر (دع
عنك هذا ، فانك إن لم ترض الرجل أقدمته منك) قال جيلة (إذا أنتصر) قال
عمر (إذا تنصرت ضربت عنقك لأنك أسلمت ، فان ارتددت قتلتك)

فلما رأى جيلة الصديق من عمر قال (أنا ناظر في هذا ليلتى هذه ، ثم اتخذ
الليل ستاراً له وفر هارباً الى الشام .

وحينما كان يذكر عمر بلالا - مؤذن الرسول عليه السلام - وعق أبي بكر له يقول : (أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا)

وليس من يؤمن بتفاوت الطبقات هو الذى يقول :
(والله لئن جاءت الأعاجم بالأعمال وجئنا بغير عمل ، فهم أولى بمحمد منا يوم القيامة . فان من قصر به عمله لا يسرع به نسبه)
ثم ليس من النظام الطبقي فى شىء أن يكون حظ ابن خليفة المسلمين وولى أمرهم أقل من حظ شاب مثله - كأسماء بن زيد - فى العطاء . ولما يستفسر ابن الخليفة والده فى ذلك - وقد أبلى فى الجهاد ما لم يتوفر لأسماء ، يكون رد هذا الوالد عليه : (لقد كان أسماء أحب الى رسول الله منك ، وأبوه أحب الى رسول الله من أهلك) .

فكل هذه السمات والمظاهر والصور التى تترادف وتتراعى من وراء ذلك لا تدل إلا على أن ما فعله عمر لم يكن إلا نوعا من التمجيد لذكرى الرسول ، ولم يكن إلا صورة صادقة لعاطفة المحبة والإكبار لذاته الكريمة عليه السلام . يدلنا على ذلك ما انتواه عمر وما أفصح عنه فى أخريات أيامه من أنه سيسوى فى العطاء بين المسلمين ، وأنه سينهج نهج أبى بكر فى ذلك ، ولو أن المنية وافته ولم يحقق ما أراد .

أما سياسة الفاروق الاقتصادية ورقابته الشديدة على عماله فى كافة الأمصار وانفاقه المال فى السبيل التى رسمها الاسلام - فلقد ضرب فى كل ذلك أروع المثل .

اقرأ هذه الفقرة من خطبته التى استهل بها عهده :

(.. ولكم على أيها الناس خصال أذكركم لكم فخذوني بها :
.. لكم على أن لا أجتبي شيئا من خراجكم ولا ما أفاء الله عليكم إلا فى حقه . ولكم على أن أزيد عطاياكم وأرزاقكم إن شاء الله تعالى ، وأسد ثغوركم

واسكنكم على ألا أقيمكم في المهالك ، وألا أجركم في ثغوركم . وإذا غبتم في البعوث فأنا أبو العيال .

ثم انظر بعد ذلك ماذا كان موقفه في المعاهدة التي أبرمها أبو عبيدة ابن الجراح مع أهل دمشق ومن تعديله لبعض بنودها وأحكامها هذا التعديل الذي ينبئنا عن قوة عقله ومدى نظريته للأُمور وتصرفه فيها على مبادئ الحق . وعلى سنن العدالة الاجتماعية فقد جعل أبو عبيدة بن الجراح (الجزية (١) ديناراً وكيلاً معيناً من الخنطة على كل رأس وزيتاً وخلاً لقوت المسلمين . هذا خلاف الضرائب التي كان الدمشقيون يدفعونها لحكامهم من الروم فقد ظلوا يدفعونها لمن قام على حكمهم من المسلمين .

أبلغ أبو عبيدة عهد الصالح عمر بن الخطاب فكتب إليه بتعديله . وذلك بأن فرق بين الطبقات في الجزية ، إذ جعل على الأغنياء أربعة دنانير عن كل رأس ، وأربعين درهماً على من دونهم ، وقيل بل جعلهم طبقات على قدر غنى الغنى وإقلال المقل ، وتوسط المتوسط .

ثم كان موقفه في منتهى الحزم والقوة . وفي غاية من النضج الاقتصادي والوعي الاجتماعي عندما اجتهد برأيه ونظر إلى بعيد . وقدر النتائج على المقدمات ولم يقبل أن تقسم الأرض بين الجنود الفاتحين الغازين كما هو الشأن في القيم المنقولة . ١ ذلك أن المتعارف عليه وما قرره الشرع الحكيم أن ما يجلب من الغنيمة كان يرسل خمسة إلى أمير المؤمنين . وتوزع أربعة أخماسه بين الجنود المنتصرين عملاً بقوله تعالى (واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسة وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) وقد فهم المسلمون أن القيم الثابتة مثل القيم المنقولة مما ينطوى تحت هذه الآية السكرية . ومما يكون غنيمة يصدق عليها ما يصدق على غيرها من الغنائم ولذلك لما

(١) انظر كتاب الفاروق عمر لبيك باشا ج ١ أوله .

(١) فتح المسلمون أرض السواد بالعراق أرادوا قسمتها على هذا النحو يكون خمسها لبيت المال ، ويقسم سائرهما بين الجند الذين اشتركوا في فتحها وخالفهم عمر رأيهم في قسمة الأرض وقال : فكيف بمن يأتي من المسلمين فيجدون الأرض بعلاجها قد قسمت وورثت عن الآباء وحيزت ! ما هذا برأى قال عبد الرحمن بن عوف : الأرض والعلاج إلا ما أفاء الله عليهم ! أى على الفاتحين ورد عليه عمر : ما هو إلا كما تقول ، ولست أرى ذلك ، والله ما يفتح بعدى بلد فيكون فيه كبير نيل ، بل عسى أن يكون كلا على المسلمين . فإذا قسمت أرض العراق بعلاجها وأرض الشام بعلاجها فإذا تسد به الثغور وما يكون للذرية والأرامل بهذا البلد وبغيره من أرض الشام والعراق !

لم يسترح الفاتحون إلى قول عمر : فأكثروا عليه وقالوا : أتقف ما أفاء الله علينا بأسيا فئنا على قوم لم يحضروا ! أما عمر فأصر على رأيه ولم يزد على أنه قال : هذا رأي . فلما رأوا إصراره عليه قالوا : فاستشر . لجمع المهاجرين الأولين فاختلفوا : بقى عبد الرحمن بن عوف على رأيه أن تقسم لهم حقوقهم ، ورأى عثمان وعلى وطليحة رأى عمر ، وأرسل عمر إلى عشرة من كبار الأنصار وأشrafهم . خمسة من الأوس ، وخمسة من الخزرج . وقال لهم « إني لم أزعجكم إلا لتتشاركوا في أمانتي فيما حملت من أموركم فإني واحد كما حدكم وأنتم اليوم تقرون بالحق . خالفني من خالفني . ووافقني من وافقني . ولست أريد أن تتبعوا هذا الذي هو هواي ، فليحكم من الله كتاب ينطق بالحق فوالله ! إن كنت نطقتم بأمر أريده ما أريد به إلا الحق ! » قالوا : « قل نسمع يا أمير المؤمنين » قال عمر : « قد سمعتم كلام هؤلاء القوم الذين زعموا أني أظلمهم حقوقهم ، وإني أعوذ بالله أن أركب ظلما ! إن كنت ظلمتهم شيئا هو لهم ، وأعطيته غيرهم لقد شقيت ، لكني رأيت أنه لم يبق شيء يفتح بعد أرض كسرى . وقد غنمنا الله أموالهم وأرضهم وعلاجهم فقسمت ما غنموا من أموال بين أهله وأخرجت

الحسن فوجهته على وجهه . وأنا في توجيهه وقد رأيت أن أحبس الأرضين
بعلوجها . وأضع عليهم فيها الخراج . وفي رقابهم الجزية يؤدونها فتكون فينا
للمسلمين : المقاتلة والذرية ولما يأتي بعدهم . أرايت هذه الثغور لا بد لها من
رجال يلزمونها ! أرايت هذه المدن العظام ، لا بد لها من أن تشحن بالجيوش ،
ولا بد من لها إدارار العطاء عليهم ! فمن أين يعطى هؤلاء إذا قسمت الأرض
والعلوج ؟ »

هذا هو رأى عمر وما فيه من هراحة وقوة واجتهاد . ونظرة بعيدة إلى
مستقبل الإسلام والمسلمين . وما تكون عليهم حالتهم لو أطاع هؤلاء الجند
إلى ما يريدون ولذلك لم يلبث هؤلاء الأنصار العشرة أن قالوا : « الرأى رأيك
فنعم ما قلت . وما رأيت ! إن لم تشحن هذه الثغور وهذه المدن بالرجال
وتجربى عليهم ما يتقوون به رجع أهل الكفر إلى مدتهم » .

إلى هنا انكتفى بهذا القدر . ونقف برهة متأملين فيما عرضناه من صور
تفصح عن روح الإسلام في مراحل الثلاث الأولى وهى عصر النبي وعصر
الصديق أبى بكر وعصر الفاروق عمر . وقد رأينا كيف نمت روح الإسلام
فيها جميعاً وكيف ترعرعت ونضجت وكملت في مظهرها وجوهرها . وأصبح
لها سلطان . كسلطان الغريزة في النفوس . والعقيدة في القلوب . وذلك لم يكن
إلا بفضل ما أفاء الله به على نبيه من قوة الشخصية . ومن صفة العبقرية ثم
بفضل ما أتته كل من الخليفين الأولين من طبيعة ومن إحماءات نفسية كانت
تختلف في كل منهما بعض الشيء . ولما كان على كل حال كانت تتفق وطبيعة
المشاكل وعلاجها . وكانت شخصية كل منهما واعية تماماً لسيكولوجية النفوس
والحوادث . وما يترتب عليها من آثار . فتعمل لها عملها وتحسب من أجلها
حسابها ، وتأخذ بنصائرها . فتتحكم فيها وتوجهها نحو الصالح العام . ولا تجعل
لها أدنى سيطرة عليها في أى شأن من الشؤون أو أمر من الأمور .

ولكننا عندما نترك هذه المراحل الثلاث للمستقبل مرحلة أخرى من مراحل التاريخ الإسلامى نجد أن الإسلام قد ترحل بعض الشيء عن مكانته . وقد فرط بعض الشيء في جوهره الذى ظل محافظا عليه بحافظة دقيقة بكل ما ترمى إليه هذه الكلمة من معنى فكانت سبله ووسائله تختلف في معالجة الحوادث والقضاء في الأقضية ، والاجتهاد في التشريع ولكن جوهره لم يمس أبداً ، ولم يتساهل أى خليفة من الخلفين السابقين في أن يمس جوهره ويعتدى على أى ركن من أركانه أدنى تساهل .

ولكن في هذه المرحلة التى تولى فيها زمام الخلافة عثمان بن عفان نجد التوفيق الذى لازم الإسلام في عهد الخلفيتين السابقين قد تخلى عنه في عهد الخليفة الثالث ونجد أن الإسلام فقد في هذه المرحلة أقوى ما كان يعتمد عليه في شخصية قائده من صفات وسمات تتفق مع قوة نهضته وتطوره ومن تكافؤ للتغلب على ما كان يعترض سبيله من صعاب . ويلم به من أحداث ، ونستطيع هنا أن نبرز الدليل على صحة نظريتنا التى اثبتناها في هذا الفصل وهى أن العامل القوى في نشر الدعوة الإسلامية ونموها وقوتها بهذه السرعة التى لم يرو التاريخ لها مثيلاً لم يكن لما في الدعوة من حق وعدل ، ومبادئ حضارية فقط ، وإنما كان أيضاً لشخصية تمثل الدعوة وقائدها : ومقدار حظه من الوعي لطبيعة الحوادث وعلاجها والتغلب عليها أثر كبير في ذلك .

فطبيعة الصديق أبى بكر كانت تتفق كما قلت وطبيعة الدعوة الإسلامية . بعد أن رفع النبي إلى الرفيق الأعلى ، وذلك لما تنطوى عليه شخصيته من رفق ولين ورحمة ، ومن تمثل شديد قوى . لكل فعل ، أو قول عن رسول الله عليه السلام ، فكان شعاره في كل شيء ما أثر عنه من قوله (إنما أنا متبع وانسبت بمبتدع) وذلك لأن الدعوة لم تكن قد تأصلت بعد في نفوس كل العرب . ولم تسكن الظروف القاسية التى أحاطت بالمسلمين بعد وفاة النبي - ولم كثر عليه السلام بعد إكمال الدعوة بينهم كثيراً - تقبل أى تغيير ولو كان طفيفاً فيما كان

الخلافة الحاكم بعض الشيء في أهم ركن من أركان الاسلام .

ولسنا ندين لمن يقولون بأن العرب لم يكن لهم مفر من الرجوع إلى هذه العنصرية العنصرية بعد أن ظهر لهم في وضوح لا يقبل الشك هذه المؤامرة الفارسية التي كان ضحيتها عمر بن الخطاب . ولكن مهما يكن من شيء فإن هذه الحادثة في خطورتها وهي قتل الخليفة لم تكن تبرر أبداً التضحية ولو ببعض الشيء بأهم ركن من أركان الاسلام . وبأن يترك العرب يتخلقون بأخلاقهم الأولى في بداوتهم وجاهليتهم ، وكان من أثر ضعف هذه الشخصية وعدم تسكافؤها وماورثته من مسائل جسام ، ومن مشاكل متعددة استتبعات اتساع الفتح الاسلامي أن أصبحت أسرة عثمان هي كل شيء . وهي المسيطرة على شئون هذه الامبراطورية الناشئة .

ولسنا ندين كذلك لمن يبررون هذا المسلك من عثمان بما يشاهدون مثله اليوم في المذاهب السياسية المعاصرة ، وهو أن الحاكم إذا لم يستعن بأقاربه فهو يستعين حتماً في إدارة شؤون الدولة برجال حزبه ممن يجمعهم وإياه مبدأ واحد وهذا إن لم يكن أقوى من القرابة فهو بمثابة أعلى الأقل . ثم إن أقرباء الانسان هم أولى الناس بالإيمان على مصالح الدولة وأشدّهم حرصاً على التعاون معه في تصريف شئونها ، والنهوض بها ، ولسكننا ننكر هذا التعليل الواهي في قوة وصراحة ، فالاسلام له ذاتيته الخاصة ، وفلسفته الجديدة التي كانت تنتفع بكل المواهب النخيرة في الانسان دون نظر إلى خلقته أو مكانته في المجتمع العربي ، والاسلام عندما أوجب التعامل والتعاون بين المسلمين ، وأن يحس بعضهم بإحساس بعض وعندما سنّ النبي الأخاء بين المهاجرين والأنصار كان يريد من وراء ذلك كله أن يوجد بين المسلمين رابطاً أقوى من رباط الاسرة وأن يجعلهم جميعاً كجسد واحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالخى والسرير فوجود هذه التعليلات هنا لا يتفق وهذا المجتمع الاسلامي الذي رباّه النبي ونهض به أبو بكر وعمر .

ولسنا نريد من وراء كل ذلك أن نتهم عثمان في إيمانه أو أخلاقه فإن هذا مما لا يمكن أن يرقى إليه الشك . إنما نتهم الفقر والضعف في شخصيته . ونتهم نظره القصير الذي مهد سبيل الفتنة الكبرى أن تأخذ طريقها إلى الإسلام وإن كان هو لم يفكر في ذلك . ولم يدر بخلده أى مصير ينتظره الإسلام من جراء سياسته هذه الضعيفة المضطربة . ومثل بسيط نسوقه هنا يدلنا على مدى ضعفه . وقصر نظره . وعدم إحاطته بكل شئون رعيته وتساهله الشديد بالمسرف مع عملائه على الأمصار حتى أصبحوا هم المسيطرون وحدهم على شئون الرعية يتحكمون فيها دون حسيب ولا رقيب وهو أنه عندما تولى الخلافة عزل الولاة عن الأمصار في عهد عمر وولى مكانهم أقاربه وكان والى مصر في عهده أخوه من الرضاة عبد الله بن أبي سرح . وحينما تبين لعثمان أن الجباية قد زادت في مصر عما كانت عليه في عهد عمرو بن العاص بمقدار ألف دينار قال لعمرو « إن اللقاح بعدك قد درت ! » أجابه عمرو في تهكم « لأنكم قد أعجفتم الفصالان ! » هذا مثل واحد نسوقه هنا ليدلك على ما كان يعتور المجتمع الإسلامى في ذلك الوقت وما كان يفعل به المسلمون في كافة الأمصار مما مهد الطريق لانبعاث عوامل الفتنة التى كانت شرأ وبلاء ونكبة على المسلمين ذلك أن على بن أبي طالب يوافقه في ذلك أقاربه من البيت الهاشمى كان يرى أنه أحق الناس بالخلافة بعد موت النبي مباشرة ولم يكن إيمان على بذلك قائماً على أساس أن الخلافة تورث . وإنما كان قائماً على أساس أن المهاجرين والأنصار عندما اختلفوا في سقيفة بنى ساعدة في أمر الخلافة كانت حجة المهاجرين في أنهم أولى بالخلافة من الأنصار أنهم أهل النبي وأقرباؤه الأذنون . فلم إذا لا يكون علماً أولى بالخلافة من هؤلاء المهاجرين أنفسهم وهو من البيت الهاشمى أولاً وابن عم النبي وزوج ابنته فاطمة ثانياً . . . ! إلا أن علماً وحزبه من المعارضين كانت تتغلب عليهم العاطفة الدينية . وكان يتغلب عليهم الإيمان القوي في عهد أبي بكر وعمر فيبلغون في أنفسهم ذاتيتهم ويتغاضون

عما يعتبرونه حقاً وواجباً لهم ما دام في ذلك خير الاسلام وعزه ومجده بمثلاً في صلاح ، وقوة ، شخصية خليفة المسلمين ، وولي أمرهم .

أما في عهد عثمان . وقد استشرى فيه الداء . وأصبح تدمر المسلمين واضحا في كل أنحاء الامبراطورية ، وذلك لضعفه ولينه وعدم سيطرته على الأمور ، فقد ظهر حزب على وأصبحت معارضته سافرة قوية فيها يعتبره منسكراً وإثماً في حق الدين . وكان هذا هو أول الشر . وأولى الشكبات التي منى بها الاسلام هذا عرض سريع اسهبنا في بعض مواضع فيه لأنه لم يكن لنا بد من هذا الاسهاب وذلك لنستظهر رأينا الذي نؤمن به وهو أن السبب الأول . أو السبب الخفي المستتر فيما ادى بالمسلمين إلى التأخر إنما وجد في عهد عثمان بن عفان . وهو تضحيته بركن خطير من أركان الدعوة الاسلامية وهو الركن الاجتماعي وما استتبع ذلك من وجود طبقة اروستقراطية . ومن وجود أناس شرهين لجمع المال . مكنزين له دون أن يسألهم الخليفة من اين السك هذا . . . ودون أن ينسك عليهم حياة الترف والبلذخ التي كانوا يعيشونها في غير اعتدال بل في اسراف .

وربما يعن للقارىء هنا ان يسأل سؤالا وهو كيف يتفق ان يكون الباعث في تأخر المسلمين قد نشأ في عهد عثمان . وقد رأينا الامبراطورية الاسلامية تنمو وتوسع في عهده . وتضخم فتوحاتها في عهد من خلفه من الامويين . وجوابنا على هذا السؤال يستلزم أن نسأل سؤالا آخر وهو هل كان انتصار المسلمين على أعدائهم وهل كان اخضاعهم الامبراطوريتين العظيمتين فارس والروم . لقوة تسليحهم . واستعدادهم المادى ، وفقر خصومهم في كل ذلك . ام كان لروحهم المعنوية ولشعورهم بأنهم على حق . . . نعتقد ان التعليل الأول لا يؤخذ به لأن المتفق عليه ، والذي لم يختلف فيه أى مؤرخ من المؤرخين ان الأمة العربية كانت فقيرة جداً ليس لها أى حظ من المادة . كما أنها لم تتوفر لها من معدات الحرب مثل ما كان لفارس أو الروم ثم إن التعليل الثانى

ليس هو كل شيء . وإنما هناك عامل خطير جداً كان السبب القوي في نصرة العرب على غيرهم من الأمم والشعوب . وهو أن تلك الأمم والشعوب التي اخضعها العرب لسلطانهم . كان قد نفذ رصيدها من الخلق . وكانت قد فقدت ما تسعى إليه كل أمة ناهضة من أهداف . وما تتمثله من مثل عليا في الحياة . وهكذا نجد أن اتساع رقعة الفتوح الاسلامية لا يرجع الفضل فيها إلى عثمان أو خلفاء بني امية . وإنما يرجع إلى أن الاسلام في عهد النبي وأبي بكر وعمر كان قد قضى على كل ما أمامه من قوة . وكان قد تخطى كل ما وضع في طريقه من سدود . وكان قد حطم كل مقاومة جديدة تحد من مضائه ونفاذه حتى جاء عهد عثمان وما تبعه من عهود ولم يكن قد وجدت بعد أية مقاومة تستطيع أن تقف في طريقه . ثم إنه ليس من السهولة بمكان أن يتأثر الاسلام في يوم وليلة وهو هذا الطود الشاخ بما يتسرب إلى جسمه من جراثيم وأدواء . وإنما كانت عوامل الصحة والقوة والحياة فيه تتغلب على هذه الجراثيم والأدواء دائماً وإن كانت لم تستطع أن تقضى عليها القضاء الأخير . حتى قدر لها أخيراً أن تتجمع وتتكاثر وأن تقضى عليه هو قضاء لا هوادة فيه وذلك لما ارتكبه بعض خلفاء الأمويين والعباسيين من منكر وإثم في حق الدين مما سنمر به عليك مرأسرياً .

ذلك أن الأمويين بعد أن استتب لهم الملك بمقتل علي . وبعد أن وطد معاوية سلطانه بهذا الخداع السياسي الذي سماه التحكيم . والذي لا يمكن إلا أن يفرع منه الضمير الإنساني . ويتقزز منه الخلق القويم . أقول بعد أن استتب السلطان لمعاوية بهذه الطريقة الشائنة لم يفرط في سياسته بما اعتمدت عليه الدعوة الاسلامية من الركن الاجتماعي فقط . وإنما فرط أيضاً في ركن آخر خطير وهو الركن الخلق ، وما نسجله هنا من شواهد وبيانات موثوق بروايتها أصدق دليل على ما نذهب إليه . والشئ الذي لا يمكن أن يختلف فيه اثنان هو أن الدولة الاموية كان طابعها البذخ والترف كما كان طابعها بعث العنصرية

العربية في نفوس العرب . . . وليست حياة الترف شراً في ذاتها إذا كان يتمتع بهذه الحياة كل فرد من أفراد الأمة . وإذا لم يكن ذلك فيه عبث بأموال الخزينة العامة - وهو بيت المال في ذلك الحين - وتبديد الأموال في غير السبيل التي وجدت من أجلها . . ! ثم إنه ليس بعث العنصرية في نفوس أمة من الأمم شراً كلها إلا إذا كان في ذلك هضم لحقوق غيرها من الأفراد والجماعات . وما سنثبت هنا يدلل لنا على أن العهد الأموي يتمثله حياة الأورستقراطية العربية . وحياة الترف بعد ما كان العرب زاهدين صادقين عن ملذات الحياة . نعتقد أن ذلك كان شراً محضاً بالنسبة لدعوة الإسلام . وما تحمله من فلسفة جديدة للعالم ومبادئ ومثل عليا للحياة : لأن معاوية وابنه يزيد استطاعا بذلك القضاء على كل معارضة أمامهما ، ولم تسكن سبيلهما في القضاء على هذه المعارضة شريفة كما سترى ، وإنما كانت أشبه شيء بالرشوة ، وشراء الذمم ، وغصب التأييد بما يقدم لأصحابها من ثمن من مال الدولة . . وهذا فيه إهدار لركن من أركان الإسلام وهو الركن الخلقى (فلقدها) (١) كان عطاء الحسن والحسين ابني علي بحسب ديوان عمر خمسة آلاف درهم في السنة جعله معاوية مليوناً من الدراهم أي أنه ضاعفه مائتي مرة . وأعطى مثل ذلك لعبد الله بن عباس لأنه ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم . وكذا عبد الله بن جعفر بن أبي طالب . وغيرهم من أبناء الصحابة أهل النفوذ في الإسلام ممن يقيمون بالمدينة .

ويروى أن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب قدم على يزيد بن معاوية فقال له يزيد كم عطاؤك ؟ قال ألف ألف درهم قال قد أضعفناها لك . قال فداك أبي وأمي وما قلتها لأحد . قال أضعفناها لك ثانية : فليل ليزيد أعطى رجلاً واحداً أربعة آلاف ألف درهم ؟ قال : ويحكم أنى أعطيتها أهل المدينة أجمعين فما يده فيه إلا عارية (١) ثم إذا نظرنا من ناحية أخرى . نرى أنه كان في بعث العنصرية

في نفوس العرب الشر كل الشر على الدعوة الإسلامية وعلى قوة الامبراطورية
وتآلفها وارتباطها : ففضلا عن أن ذلك فيه إهدار تام لركن هام من أركان
الدعوة ، فإنه قد فتح باب الصراع المر بين المسلمين حتى أن قيام الدولة العباسية
على إشلء الدولة الأموية لم يكن إلا بسبب وجود هذه العنصرية وما حاق
بالموالى من أذى واضطهاد ومنكر لا يقره الدين . والدليل على أن بعث هذه
العنصرية استعمل في ناحيته السوء ما ذكره هنا بما يدل على نظرة معاوية
وسياسته ومدى تصورهِ أو هضمه الدعوة الإسلامية وهو أن الحسن بن علي
أعقق جارية له وتزوجها فكتب إليه معاوية يقول (من (١) أمير المؤمنين معاوية
إلى الحسن بن علي ، أما بعد فإنه بلغني أنك تزجت جاريته ، وتركت أكفاءك من
قريش عن نستحسن للولد ونمجد به في الصهر فلا لنفسك نظرت ولالولدك انتقيت)
فرد عليه الحسن قائلا (أما بعد فقد بلغني كتابك وتعميرك إياي بأنى تزوجت
مولاتي . وتركت أكفائي من قریش فليس فوق رسول الله منتهى في شرف
ولا غاية في نسب ، وإنما كانت ملك يميني خرجت عن يدي بأمر التمت فيه
ثواب الله تعالى ثم ارتبعتها على سنة نبيه صلى الله عليه وسلم . وقد رفع الله
بالإسلام الخسيسة ووضع عنابه النقيصة . فلا لوم على امرئ مسلم إلا في أمر
مأثم ، وإنما اللوم لوم الجاهلية) وهناك ما هو أشد من ذلك فظاظة وقسوة
وابتعاداً عن روح الدين وهو ما يروى (من (٢) أن معاوية دعا الأحنف بن
قيس وسمرة بن جندب فقال لهما : انى رأيت هذه الجراء قد كثرت (يقصد
بالجرائم الموالى) وأراها قد قطعت على السلف . وكأني انظر إلى وثبة منهم على
العرب والسلطان . فقد رأيت أن أقتل شطراً وأدع آخر لإقامة السوق ، وعمارة
الطريق فما ترون ؟ فقال الأحنف أرى أن نفسي لا تطيب أخى لأمى وخالى
ومولاي وقد شاركناهم وشاركونا في النسب . وأطرق : فقال سمرة بن جندب

اجعلها إلى أيها الأمير فأنا أتولى ذلك فيهم وابلغ منه فقال قوما حتى انظر في هذا الأمر قال الأحنف فقمنا عنه وأنا خائف . وأتيت أهلي حزينا فلما كان بالغداة أرسل إلى فعلت أنه أخذ برأى وترك رأى سمرة).

ثم ما يروى أيضا من أن نافع بن جبير بن مطعم « قدم رجلا من الموالي يصلى به ، فلامه العرب أشد اللوم فقال : إنما أردت أن أتواضع لله بالصلاة خلفه » .

وكان نافع هذا ، إذا مرت به جنازة قال من هذا ؟ فان قالوا قرشى قال : واقوماه ، وإذا قالوا عربى قال : وابلواتاه ، وإذا قالوا مولى قال : هذا مال الله يأخذ ما شاء ويدع ما شاء .

ويروى أيضا أن خالد بن صفوان زوج مولى له من مولاه . ثم خطب في هذا الزواج أمام الناس فقال « أما بعد فان الله أعز وأجل من أن يذكر في نكاح هذين الكلبين . وقد زوجنا هذه الفاعلة من هذا ابن الفاعلة » .

هذه كلها أشياء تصور لنا المجتمع العربى فى عهد الأمويين وما اعتوره من تغير شديد عن عهد النبى وخليفته أبى بكر وعمر والشئ الذى نحب أن نسجله هنا ما وجد من الأثر السىء نتيجة لتهاون عثمان أولا ، وما وجد من الاعتداء الصارخ على أركان الاسلام وروحه فى عهد الأمويين والعباسيين ثانيا . حتى أسلمه الآخرون إلى دور التأخر والانحلال .

وهناك أمور على جانب هام من الخطورة غفل عنها الأمويون بحافظة على كيانهم ، وتشبيها لسلطانهم . وكانت بدورها أكبر كارثة منى بها الاسلام .

ذلك أن بغض الأمويين للموالى . واحتقارهم لهم . وعدم الاعتراف بمساواتهم فى شئ . فضلا عن أنه قضى على ركن خطير كما قلت من أركان الاسلام . وهو الركن الاجتماعى . فإنه أنشأ فى الدين بدعا جديدا ، وأحدث حدثا يتنافر وطبيعة الاسلام . ! وهو هذه الأحاديث التى كانت تخلق اختلافا

وتروى عن النبي عليه السلام . وذلك لتبرير عدم هذه المساواة :
من ذلك ما يروى من أن النبي عليه السلام قال :

(الألا (١) لا يزوج النساء إلا الأولياء ، ولا يزوجن إلا من الأكفاء)
وما نسب إليه من قوله أيضاً (قریش بعضهم أكفاء لبعض بطن بطن .
والعرب بعضهم أكفاء لبعض قبيلة بقيلة ، والموالى بعضهم أكفاء لبعض
رجل برجل) .

كان فتح هذا الباب الذى شجعتة السياسة الأموية . وهو تأييد هذه
الأحاديث الموضوعة والمنسوبة إلى النبي عليه السلام شر أى شر أصيب
به الاسلام . . . ويكفى أن تعلم أن الأحاديث الموضوعة صارت تربو أخيراً عن
ستماية ألف حديث لم يصح منها أكثر من أربعة آلاف حديث لدى البخارى
ونعتقد أنه كان من أثر فتح هذا الباب وتشجيع السياسة الأموية له أن عادت
إلى نفوس العرب عنجهيتها الجاهلية . وإلى نفوس غيرهم من الأمم الخاضعة لهم
حقدها الدفين ، حتى أن قيام الدولة العباسية على أشلاء الأمويين لم يكن إلا
بفضل الموالى وعلى رأسهم أبو مسلم الخرساني الذى انسكر نسبة فى سبيل
مناهضة الدولة الأمويين ، ودعوة أهل خراسان إلى الإنقضاض عليها فاصطنع
لنفسه نسباً عربياً وزعم أنه من نسل سليط بن عبد الله بن عباس . وإن كان
لم يعان ذلك إلا بعد قيام الدولة العباسية .

ثم إن هناك شيئاً على جانب كبير من الخطورة . وهو أن الأمويين كانوا
يؤمنون فيما بينهم وبين أنفسهم بأن بناء دولتهم قام على أسس تتنافر والخلق
السكرام . وبأن الحزب العلوى الهاشمى يصممهم بأنهم أخذوا الملك غصباً واحتيالاً
فلم يكن لهم مفر من أن يعتصموا بشئ يظهرهم به أحقيتهم فى الخلافة ، وأنها

من الامور المسئلة لهم منذ الازل فأثاروا في زمنهم مشكلة الجبرية ، وشجعوها وعملوا لها . حتى يبرهنوا للناس على أن هذا الملك الذى استولوا عليه كتب لهم منذ الازل متغاضين عن نتائج ذلك ، وعمّا أحدثه فى الاسلام من فرقة وعمّاتل فى المسلمين من حرية الرأى وقوة الإرادة . ولم تكن هذه الجبرية - أو حكم القضاء والقدر - الذى فهموه مما يتفق ونظرة الإسلام وحقيقته . وإنما كان شيئاً أشبه كثيراً بمذهب الرواقيين اليونانيين ، وهو الذى يدعو إلى القعود والإستسلام ، وأن العيش ليس بالسعى ولا بالتدبير ، وإنما هو بالرزق والتقدير دون أن يكون لعمل الإنسان فضل فى ذلك . وأن ما قدر أو كان . كتب على الإنسان منذ الازل . دون أن يكون له اختيار أو إرادة فيه ، وإن كان هذا المذهب لا يستكمل عناصر قوته والتشابه إلا فى العصر العباسى .

وإذا أردنا نحن أن نلم المامة خاطفة بنظرة الإسلام إلى هذه الجبرية . نجد أنه صورها تصويراً يتفق مع العقل والمنطق . ومع ما ينشده الإنسان من سمو وراحة واطمئنان .

والذى أحب أن أكرره هنا قبل أن ألمس هذه المسألة لمساً خفيفاً هو أن من يريد أن يفهم الإسلام على حقيقته يجب أن يؤمن بأنه لا يتجزأ ، وبأنه مكمل بعضه بعضاً فى كافة تعاليمه وأوامره ونواهيه ويجب أن يضع نصب عينيه دائماً ما ينشده الإسلام من غايات من وراء ذلك كله .

والاسلام فى هذه المسألة كان واعياً تماماً حقيقة النفس الانسانية ، وكان خبيراً بما يعتورها من ضعف . وما تنهار به من مؤثرات . فوجد لها من هذه الجبرية حصناً ، وعلاجاً يقيها شر الانهيار فالإنسان يسعى ويعمل ، فإذا قدر له الفوز فلا يتعالى ولا يستكبر ، وليحمد الله ، لأنه هو الذى كتب له الفوز وأعانه عليه وإذا أخفق فلا ينهار ولا يتحسر ، ولا يضعف ويتلاشى أمام ما يعترضه من حواجز ، وينزل عليه من كوارث ، لأن الله هو الذى أراد له

ذلك فالحمد لله في الأولى والراحة النفسية في الأخرى .

وإذا علمنا من جهة أخرى أن وجود الانسان ذاته خاضع لأشياء أخرى خارجة عن إرادته . وأنه يكتيف حياته بعوامل ليست من اختياره وإن كانت خافية عليه وذلك لظروف البيئة . وحكم الوراثة . وأن الإنسان في أعماله ، بل حتى في مشاعره وإحساساته ، خاضع خضوعاً تاماً لأشياء ليس له أدنى حظ في خلقها أو تفاعلها . وإنما هي مهيمنة عليه راسمة له حياته الوجودية بحكم القوانين الطبيعية . ومستلزمات الجنس والوراثة .

إذا علمنا ذلك كله تبين لنا بوضوح أن هناك قوى خفية أقوى من الانسان ترسم له حياته . وتتحكم في تكيف وجوده .

يقول سينيوزا (إن الانسان إنما يعتقد أنه حر لأنه يجهل الأسباب التي تدفعه إلى الفعل) .

ونعود مرة أخرى ، فنأخذ فيما كنا فيه . فنقول أنه كان من أثر تشجيع الأمويين لهذه الجبرية التي رأيت أن الاسلام يرى منها أن أصبح العامة وأشباههم من جمهرة المسلمين يفهمون الدين على غير حقيقته . ويتساهلون فيما يقدم عليه الخليفة من منكر ، وفيما يأتيه من إثم . حتى أننا نجد خليفة من الخلفاء الأمويين . وهو عبد الملك بن مروان يقتل عمرأ بن سعيد حينما دعاه لزيارته ، وقد ذهب إليه في نفر من أتباعه يبلغون الأربعة آلاف رجل أحاطوا بقصر عبد الملك بن مروان « فلما قتل عبد الملك عمرأ أدرجه في بساط وأدخله تحت السرير ، ودخل عليه حينئذ كقيصة بن ذؤيب الخزاعي ، وكان أحد الفقهاء ، ورضيع عبد الملك ، وصاحب خاتمه ومشورته ، فقال له عبد الملك ما رأيك في عمرو بن سعيد ، فأبصر قبيصة رجل عمرو وتحت السرير فقال له اضرب عنقه يا أمير المؤمنين . فقال له عبد الملك جزاك الله خيراً ، فما علمتك إلا ناصحاً أميناً موافقاً . قال له : فيما ترى في هؤلاء الذين أهدقوا

بنا ، وأحاطوا بقصرنا ؟ قال قبيصة : اطرح رأسه إليهم ، ثم اطرح عليهم الدنانير والدراهم يتشاكلون بها قال : فأمر عبد الملك برأس عمرو أن تطرح إليهم من أعلى القصر . فطرح إليهم ، وطرح الدنانير ، ونثرت الدراهم ، ثم هتف عليهم الهاتف ينادى : (إن أمير المؤمنين قد قتل صاحبكم بما كان من القضاء السابق ، والأمر النافذ ...) وكان على أمير المؤمنين عهد الله وميثاقه أن يحمل راجلكم ، ويكسوعاريكم ، ويغنى فقيركم فيبلغكم إلى أكل ما يكون من العطاء والرزق ، ويبلغكم إلى المائتين في الديوان فاعترضوا على ديوانكم واقبلوا أمره . واسكنوا إلى عهده . يسلم لكم دينكم ودنياكم . قال فصاحوا نعم نعم سمعنا وطاعة لأمير المؤمنين .

هكذا قد صورنا لك الاسلام في عهد الأمويين ، ووضعنا لك نظرتهم للعقيدة الدينية ، وأنهم لم يكونوا حريصين على تثبيت قواعد الاسلام الخلقية والاجتماعية والاقتصادية قدر ما كانوا حريصين على دعم سلطانهم . وسيادة عنصرهم ، وتقوية دولتهم .

بعد ذلك ننتقل بك إلى عصر العباسيين فنستظهر سياستهم لنرى إلى أي حد تكون مسئوليتهم فيما ألم بالاسلام من عوامل التأخر ، ودواعي الانتكاس ، وأول شيء تتميز به سياسة العباسيين أنهم أنكروا على الأمويين ابتعادهم عن الدين ، وتغاضيهم عن تعاليمه في إقامة دولتهم فأخواهم بين الدين والدولة بل جعلوا دولتهم قائمة على أسس دينية محضة ، وهذا شيء عظيم جدا خطير حقا . لو أنهم أخذوا الدين صافيا خالصا لما ألم به من خرافات واختلاقات . ولكنهم أقاموا دولتهم على أسس رهبانية ينكرها الاسلام ولا تتفق وروحه ورسالته .

ولأنجب أن نطيل كثيراً لأن غرضنا من هذا الفصل أن نستكشف الباعث الحقيقي الأول فيما أدى بالمسلمين إلى حالة التأخر والانحطاط . وقد

أريناك هذا الباعث فيما عرضنا لك بما سبق . ولسكننا قبل أن نختم هذا الفصل نحب أن نسير قليلاً لنعرض لك الأدوار التي مر بها الإسلام في عهد العباسيين حتى اسلموه إلى دور الانحلال

لقد علمت بما قدمناه لك أن الدولة العباسية اعتمدت في قيامها على الفرس وأن هؤلاء الفرس من الموالى بما لهم من استعداد قوى في البحث ، وبما لهم من من أفق واسع في دراسة العلوم . فقد اتجهوا بكليتهم عندما رأوا الأمويين هاضمين حقوقهم الاجتماعية والسياسية إلى ميدان البحث والعلم فبرزوا في ذلك أى تبرز . وسيطروا على الحركة الفكرية في الأبراطورية العربية . وكان منهم المخلصون للدين . وغير المخلصين : وهؤلاء الأخيرون وهم السكثرة الغالبة . فقد اضطنعوا في الاسلام عناصر دياناتهم السابقة من مجوسية وغيرها . وشجعهم في التغالى في ذلك أن الأمويين لم يكونوا ينظرون إلى هذه الاختلافات في الدين نظرة الجدد والصرامة . وإنما كانوا منصرفين إلى تقوية دولتهم بسبيلين آخرين هما العنصرية أولاً . والمال ثانياً . ثم من جهة أخرى نجد أن هناك عاملين خطيرين مهدا السبيل لإضافة هذه الاختلافات إلى الدين . وعدم محاربتها . والقضاء عليها وهى في مهدها . أولهما فتح هذا الباب أولاً بيد الأمويين وهو اختراع تلك الأحاديث المنسوبة إلى النبي عليه السلام لتفضيل العرب على غيرهم من الموالى . فلم يجد الموالى مانعاً من أن يدلواهم أيضاً بدلوهم في هذا السبيل . ثانياً انضمام الموالى لحزب آل البيت . وتحالفهم معهم للقضاء على الدولة الأموية كان من الأمور التي استدعت اضطناع أحاديث كثيرة تنفق . وأغراض هذا الحزب . وأفضليته وأحققيته في الخلافة . حتى أننا نجد زعماء المعارضة للأمويين كانوا يدعون في ظاهرهم لقيام خليفة من أهل البيت . وفي باطنهم لقيام خليفة من العباسيين لتسكون هذه الدولة من صنعهم فيتحكمون فيها . ويوجهون سياستها حسب ما يشاؤون . ولذلك نجد أن الظاهرة الواضحة للدولة العباسية أنها اضطنعت في ظاهرها وباطنها بالعهد

الفارسي القديم . وبما كان يسود عصر الساسانيين من ترف وبذخ ودسائس ونفاق وأتوقراطية في الحكم .

وإذا كانت الدولة الأموية قد اصطنعت في الإسلام نظام الطبقات ، ونظام التمييز في الحقوق . وذلك بتفضيلها الجنس العربي على غيره . فقد تغالت الدولة العباسية في ذلك أشد المخالاة . وأصبحت الشعوبية الفارسية تطل بوجهها على الجنس العربي . ولم يكن الخليفة في غالب الأحيان إلا آلة توجه وليس لها من الأمر شيء . ونسوق هنا حادثة واحدة تثبت ما نذهب إليه . وهو أن خليفة من الخلفاء لم يستطع أن يهرم أمراً أو ينفذ شيئاً إذا كان يتعارض وأغراض السياسة الفارسية (من (١) ذلك أن أبا مسلم الخرساني وجه محمد بن الأشعث بن عبد الرحمن أميراً على فارس ، ورأى أبو العباس أن يستعمل عليها عمه عيسى بن علي . فعقد له عليها ، وأمره بالمسير إليها . فلما قدم عيسى على محمد بن الأشعث أبي أن يسلم إليه ، فقال له عيسى : يا ابن الأشعث . ألسنت في طاعة الإمام أبي العباس ؟ قال : بلى . غير أن أبا مسلم أمرني ألا أسلم العمل إلى أحد من الناس . قال عيسى فإني أبا مسلم عبد للإمام . وإن الإمام لا يرضى أن يرد أمره . قال محمد . دع عنك هذا . لست أسلم العمل إلا بكتاب أبي مسلم . فانصرف عيسى إلى أبي العباس فأخبره بذلك فكظم غيظه . وأمر عمه بالمقام عنده فأقام) .

وهكذا نرى أن الإسلام من أول عهد الخليفة عثمان بن عفان كانت تتصارع في جسمه الحى عوامل القوة والضعف . وكان دائماً بما يخترنه من حيوية زائدة يتغلب على عوامل الضعف ويطغى عليها . ويجعلها تتلاشى فيه حتى مر عهد الأمويين . وعوامل الهدم تتدافع نحوه وتتكاثر عليه إلى أن أتى عهد العباسيين ولم تكن هذه العوامل وحدها هي التي تأخذ عليه سبيله . وتعمل عملها فيه . وإنما زاد على ذلك أن اصطبيع الإسلام بصيغة رهبانية فظهرت الكهنوتية الدينية فيه ظهوراً واضحاً . وأصبح الخليفة يعتقد أنه (ظل الله فوق الأرض)

وأنه يستمد سلطته من الله . . . تماماً كما كان يزعم البابا في القرون الوسطى .
وهنا نحن أولاء نثبت هنا فقرات من خطاب للخليفة المنصور العباسي تظهرنا
على ما كان يسود عصر العباسيين من أوتوقراطية في الحكم ومن فهم للخلافة
لا يتفق وروح الإسلام .

قال المنصور العباسي :

(أيها الناس إنما أنا سلطان الله في أرضه أسوسكم بتوقيقه وتأيده .
وحارسه على ماله أعمل فيه بمشيئته وإرادته . وأعطيه يأذنه . فقد جعلني الله عليه
قفاً ان شاء أن يفتحني فتعني لإعطائكم . وقسم أرزاقكم وإن شاء أن يغلني
عليها أقفاني) .

وكان من الطبيعي أن يتحقق هنا ما يتحقق لأوروبا في عهود ظلمتها وجهلها
وتأخرها نتيجة لهذا النظام الأوتوقراطي . وما يصحبه دائماً من قتل للحرية
الفردية . والكرامة الانسانية . ومن محافظة شديدة على الرجعية . ومناهضة كل
فكرة تجديدية . ثم من محاربة مسرفة لجميع العلوم . والفنون التي تدعو إلى
سنة التطور . والارتقاء .

حتى أننا إذا وجدنا في هذا العصر العباسي شيئاً من التشجيع للعلماء
والشعراء . فإن ذلك لم يكن لوجه الله . ولم يكن حقاً من الواجب على الدولة
نحو علمائها ونايغها أن تمنحه إياهم . وإنما كان منحة يتفضل بها الخليفة على من
يذيب نفسه . ويمتحن كرامته تملقاً له . وإشادة بفضله . وكرمه . وهجواً مرأ
لخصومه من السياسيين . وكان الخليفة بعد ذلك إذا شاء أعطى . أعطى من
غير حساب من مال الدولة . وإذا شاء لم يعط : فلا أجد هناك بمستطيع
حسابه . . .

نعتقد أننا إلى هنا قد أوفينا هذا الفصل حقه . وقد استظهرنا فيه العوامل

الحقيقية لتأخر المسلمين . مخالفين في ذلك ما أثبتنا لهم آراءهم في مقدمة هذا الفصل من مستشرقين ومفكرين إسلاميين ... ونعتقد أننا لسنا في حاجة لمناقشتهم آراءهم لأن ما عرضناه هنا فيه الرد المقنع لهم جميعاً .

بقي بعد أن عرفنا ، وألمنا بما أدى بالمسلمين إلى هذا التأخر أن نعرف السبل والوسائل التي تؤدي بهم إلى النهوض والرقى ، وإلى أن يأخذوا بنصيبهم في مجالى التقدم الحضارى ، وإلى أن يكون لهم دورهم في المحافظة على كيان الإنسانية ، وسعادتها وهنائها . ذلك ما سنعالجه في الفصل الأخير من الكتاب .

